كفر الكنبة

منذ طفولتي وحتى صرت صبيًا والناس في قريتنا يشبهون بعضهم بعضًا، قريتنا قرية غريبة.. أهلها يحتفظون في كلّ بيت من بيوتها بكنبة قديمة؛ يتوارثونها جيلاً بعد جيل، يحرصون عليها أشدّ الحرص، حتّى إن اسم قريتنا اشتقّ منها، يقبع أمام الكنبة تلفاز، يظلّون جالسين عليها يشاهدونه طوال الليل وبعض النهار تبعًا للمواعيد المقدسة، يتابعون القناة الوحيدة صاحبة البرنامج الواحد، الذي يقدّمه مذيع واحد يغيّر أقنعة عديدة طوال مدة عرض البرنامج في التلفاز، ينظرون إليها كالمنوّمين مغناطيسيًا، يأكلون ويزدادون وزنًا تتراكم الشحوم على وجوههم وأدمغتهم بشكل غريب، وهم لا يشعرون ولا يمتعضون ولا يزعجهم الأمر حتّى.. يمارسون طقوس حياتهم اليومية سريعًا؛ حتى يتسنى لهم اللحاق بالمواعيد المقدّسة لجلوسهم عليها، يخشون أن يتأخّروا حتّى لا توقع عليهم غرامة تأخير، يحتسبها جهاز موجود في ظهر الكنبة، نبدأ نحن الأطفال والصبية في الجلوس عليها حينما نبلغ العشرين عامًا، ولا يستطيع أحد الخروج على هذا القانون، وإلّا كان العقاب والتنكيل هو الجزاء المؤكّد، يؤمن أهالي الكفر أنّ الكنبة تحميهم، وتوفر لهم الراحة والأمان، كما أنّها تجمع العائلة بصورة

مثاليـة، لم يفكـر أحـد في الخـروج علـى القانـون، ربّمـا خوفًـا، وربّمـا عـن إيمـان حقيقـيّ بأهميتهـا المقدّسـة.. يجلسـون فاغريـن أفواههـم، عيونهـم جاحظـة مفتوحـة علـى آخرهـا لا ترمـش ولا تـرف بشـكل غريـب.

رأيـت شـعاعًا خفيًّـا ينبعـث مـن الشاشـة إلى عيونهـم مباشـرة، ولكنّهـم لا يرونـه، لم يعجبـني الأمـر، ورفضـت أن أقضـي بقيـة عمـري بهـذا الشـكل، حاولـت كثيرًا التسـلّل خلسـة لإيقـاف جهـاز الغرامـة والاستشـعار، لكنّـني لم أسـتطع، اتفقـت وبعـض أصدقائـي علـى أن نخـرب الجهـاز، الـذي يسـتعبدنا، ويسـتعبد أهلنـا ولـو بالقـوة، نوقظهـم مـن هـذا الروتـين القاتـل والنظـام القاسـي، ونعالجهـم مـن الشـحوم، الـتي تراكمـت علـى عقولهـم وأجسـادهم، لعلّهـم يـرون الحقيقـة الغائبـة عنهـم، مثلمـا نراهـا نحـن، وهنـا قفـز إلى ذهـني تسـاؤل.. هـل أدرك أهلنـا مـا أدركنـاه نحـن وهـم في نفـس أعمارنـا؟ وإذا أدركـوه؛ فلمـاذا صمتـوا كلّ هـذه الأعـوام؟! ومـن المسـتفيد مـن الحالـة الـتي عليها الكفـر؟... عمومًـا ليـس هـذا وقـت الأسـئلة، لقـد قرّرنـا وسـنقوم بالتنفيـذ الليلـة.

انتظرنـا حتّـى جـاء الوقـت المعلـوم ميعـاد الجلـوس علـى الكنبـة للكبـار، وبينمـا هـم جالسـون جاحظـين فاغريـن أفواههم، اجتمعنـا خلـف الكنبـة، وأخذنـا نهاجـم الجهـاز بمفكّاتنـا

ومطارقنا محاولين فك الجهاز أو كسره، وإذا بضوء أحمر يشوبه السواد يخرج من الجهاز، يزداد ويتشكّل في صورة سلويت لأشخاص ترتسم الجدية والقسوة على ملامحهم، أحاطوا بنا من كل جانب، وشكّلوا نجمة ابتلعتنا جميعًا، ثم سحبتنا بقوة شفط غريبة إلى داخل الجهاز، الجوّ خانق ومظلم ورائحة العرق والعطن تنبعث من كلّ صوب، تشكّل السلويت رجالًا غلاظ الملامح، يمسكون هراوات شائكة، قادونا إلى غرفة غريبة مملوءة بأنابيب أسطوانية تشبه «السوست»، سجنوا كل واحد منا في «سوستة»، مازال أهلنا جالسين فوقنا، مع كلّ حركة منهم نتألّم.. نصرخ.. وما من مجيب، منّا من أعلن توبته، وتوسّل للرجوع إلى حياته؛ مؤكّدًا أنّ الكنبة هي الأمان، وأنّه استدرِج وتابع للقطيع وغيرها من التوسّلات المخزية.

رضوا عن البعض وأعادوهم أشباه آدميين، أمّا أنا وزملائي الباقون وغيرنا كثر بعدد سوست الكنب؛ مازلنا نعاني، ونحن نزداد كرهًا يومًا بعد يوم للكنبة والمسئولين عنها وزبانية جهنم، الذين يذيقوننا العذاب، حتّى جاء يوم سمعنا فيه الحرّاس يهرولون ويصرخون يتحدّثون عن طوفان اجتاح البيوت، وسوف يغرق الكفر، بعض الحرس أشفقوا علينا، فأخرجوا بعضنا؛ ليريحوا ما تبقّى من ضمائرهم،

فأخذنا نخرج بعضنا من السوست، والماء يغمر أرضية الكنبة، وأهلنا لا يشعرون، هرولنا في كلّ مكان؛ لنجد المخرج، حتى وجدنا خرقًا قديمًا في القماش، صنعه فأر جائع قتله الحراس، ومازالت رائحة جثته تفوح، خرجنا وبمجرد الخروج عدنا إلى أحجامنا الطبيعية، حاولنا إيقاظ أهلنا، ولكن بلا فائدة الدهون غطت عيونهم وآذانهم ومسخت ملامحهم، لم يعد أمامنا إلّا النجاة بأنفسنا، فصعدنا إلى أعالي الأشجار، نطلب العصمة من اللّه، لم نرَ الأشجار بمثل هذا الجمال من قبلُ، وربما لم نرها أصلًا.. فاض الطوفان، هدم البيوت، وطاف الكنب متّجهًا إلى المصرف؛ حتى سدّه، وتراكمت جبال المياه فوقه؛ حتى أهلكته إلى غير رجعة، وبعد سبعة أيام، ابتلعت الأرض الماء وجفت بعض المناطق، فنزلنا من أعالي الشجر، متّخذين قرارًا في البدء في بناء كفرنا الجديد، واتّفقنا على أن نسمّيه «كفر أبو سوستة».